

السّرواية المغربيّة وتحديّاتها

ط.د. لرجاني خديجة أسماء
جامعة الجبلاي اليابس سيدي بلعباس
lardjanikhadidja20@yahoo.com

تاريخ النشر: 2020	تاريخ القبول: 2020\04\15	تاريخ الإرسال: 2018\03\23
-------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص باللّغة العربيّة:

لقد شهدت الساحة العربيّة في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ميلاد فن جديد عرف بالسّرواية؛ وعليه ظهرت دراسات كثيرة اهتمت بهذا الفن الجديد، وخصوصا أنّ ظهور السّرواية العربيّة تزامن وحصول بلدان المغرب العربي على الاستقلال؛ حيث عمد كتابه من الرّوآد إلى استعادة التاريخ النضالي لحركات التحرير الوطنية، وذلك في صياغة تمجيدية منفعة بلحظة الاستقلال، وحدث النصر، وما تولّد عنها من مشاعر ورغبة في إثبات مقوّمات الهوية المستلبة والتعبير عن الموقف السياسي خاصة إذا ما أدركنا أنّ هذا الجيل الرائد من كتّاب السّرواية المغاربية ذات التعبير العربي قد عايش التجربة الاستعمارية، فعابن وكابد أشكالاً من المعاناة، أين وجد الروائي العربي مادة جاهزة لكتابة نصّه الروائي، إيماناً منه أنّ هذا التاريخ تراث يجب أن يخلد في قالب غير قالب كتب التاريخ، ليُدون وتحفظه الذاكرة بطريقة أخرى.

الملخص باللّغة الانجليزية:

By the end of the 19th century, a new art called narration has appeared in the Arab world. Thus, many studies were concerned with this new art, especially that it has appeared after the independence of North African countries, which made the first novelists write about warfare history for national liberation movements using laudatory wording, which was influenced by independence and victory, and trying to prove the identity and express the political situation, as those novelists lived in the occupation period and suffered variety of hardships, which provided them a rich subject for writing, that must be kept not only in historical writing, but in another form of writing called narration.

مقدّمة:

لقد أصبح للمغرب الأقصى مكانة عالية في كل المجالات وخاصة الأدبيّة والفكريّة منها سواء في القصّة القصيرة، المسرح والرّواية؛ هذه الأخيرة التي تعدّ جنسا أدبيا مستحدثا في الثقافة العربيّة عامة والمغربيّة على وجه الخصوص؛ وعليه اتّخذت الرّواية حيّزا مهمّا في الدراسات النقديّة المغاربيّة، إلّا أنّ المشكل الّذي اعترض الباحثين يكمن في البداية التأسيسية لهذا الفن الرّوائي ولذلك وقع خلاف في مسألة التّأصيل، الأمر الّذي أدى إلى ظهور:

أ- فريق أوّل: يرجع زمن ظهور الرّواية المغربيّة إلى الثّلاث الأوّل من القرن العشرين، وهذا الزمن مقرون بنّص (الرحلة المراكشية) أو (مرآة المساوي الوقتيّة) سنة 1924م للأديب المصلح عبد الله بن المؤقت المراكشي، حيث أعتبر هذا النّص من الأشكال الجنيّية التي مهدّت للرّواية، وإن كان هذا النّص "ينتمي أجناسيا إلى المتن الرحلي، والمؤلّف، السارد، يصرّح بوضوح على هذا التجنيس من خلال العنوان".⁽¹⁾ ولقد صنف النّقاد (الرحلة المراكشية) هذا التّصنيف "لتصور كاتبها الساذج للفن القصصي أو الرّوائي وما يقتضيه من شروط، وهو قصور تجلّى في طرائق التعبير خاصة، فقد ورد أسلوب هذه المحاولة الرّوائية متأرجحا، فهو من حيث بساطته وانطلاقة متأثرا بالفصاحة، ومن حيث سجعته متأثرا بعهود الصناعة اللفظية. فلم يكن ثمة خيال أو فنيّة تنتهجها"⁽²⁾ وهي لذلك إلى الرحلة أقرب منه إلى الفن الرّوائي.

ويؤيّد هذا الرّأي السيد حامد النّساج، الّذي يرى أنّ "ما يذكره بعض المغاربة على أنّه أعمال قصصية وروائية (كالرحلة المراكشية، أو مرآة المسائل الوقتيّة، لمجد بن

عبد الله المؤقت وتأسيس لعلال الجامعي، وعذراء المريّة لعبد الله إبراهيم، وعجائب الأقدار أو عواقب الإصرار لمصطفى الغرباوي، أو الضحية لمليكة الفاسي، وغيرها من كتابات آمنة اللآوة، وأحمد البقالي وعبد العزيز بن عبد الله) لم تتوفر فيه إمكانيات أو مقومات تؤهله لأن يحتل موقع الزيادة في مجال الفن الروائي... وأنّ الذين يحرصون على ذكرها ما هم إلا أولئك الذين يعنون بتضخيم الذات لا أولئك الذين يحرصون على تأصيل الفن الروائي"⁽³⁾. بذلك يكون قد أقصى أي عمل من تلك الأعمال المذكورة أن تكون قد أصلت الفن للفن الروائي المغربي، حتى (الرحلة المراكشية) التي استقطبت اهتمام الكثير من النقاد المغاربة، بل هي محاولة من المحاولات الكثيرة التي فرضها واقع دعا إلى تغيير ثقافي.

ب- فريق ثاني: يرجع بدايتها إلى عبد المجيد بن جلول وروايته (في الطفولة) الجزء الأول، سنة 1957م التي أخذت حيزًا مهمًا في النتاج الأدبي المغربي خلال الستينيات، حيث اعتبرت "أول محاولة روائية في المغرب، اتخذت شكل السيرة الذاتية، وأنها بذلك تدشن تاريخ الرواية المغربية المكتوبة بالعربية... لكونها ربطت هذا النوع الأدبي - الرواية - بالواقع المغربي بعد الاستقلال؛ حيث عكس ظهوره طموح الأدباء إلى التعبير عن مجتمع بأكمله، ومحاولة استجلاء العناصر الجوهرية التي تتحكم في علائقه وتطوراتها"⁽⁴⁾، كما يُجمع معظم النقاد أنّ الزمن الفعلي الذي تأسس فيه الأدب المغربي عامة والرواية خاصة، هو مطلع الستينات، يقول محمد زفزاف: "الستينات هي بداية الأدب المغربي الناضج فنيًا وموضوعيًا، وأنّ الأدب الحقيقي، الأدب المغربي المعاصر لم يبدأ إلا بعد 1960م، وأنّ أدب ما بعد الستينات هو الذي استطاع أن يرصد كل تحركات الجماهير وانفعالاتها..."⁽⁵⁾ وهذا ما يراه بوشوشة بن جمعة أيضًا؛ إذ يحدّد الزمن الذي تأسست فيه الرواية المغربية مع مطلع الستينات⁽⁶⁾.

ولكن هناك سيرة ذاتية أخرى أصدّت للخطاب الرّوائيّ المغربيّ وهي (الزاوية) للتّهامي الوزاني، التي صدرت سنة 1942م "لأنّ هذه السيرة تكسر منذ بدايتها الخاصية المتعارف عليها في السيرة الذاتيّة، والمتمثلة في كونها جنسا أدبيا يبرز الأنا ويؤكد حضوره وتفردّه وهذا ما أكسبها تركيبا فديا يحمل بعض المكونات الرّوائية".⁽⁷⁾

ج- فريق ثالث: يرى أنّ البداية الحقيقيّة للرّواية المغربيّة دشنت في الخمسينيات، وتعرّزت بعد الاستقلال، برواية (في الطفولة) لعبد المجيد بن جلول، على أساس أنّ كل من السيرة الذاتية والرّواية التاريخيّة قد أصلا للفن الرّوائيّ المغربيّ. لكن في هذا التحديد يجب أن نراعي حقيقة التفاوت الجماليّ بين النّصوص التي ظهرت متزامنة مع نّص (الزاوية)، "لأنّ المقارنة لا تستقيم بين نصوص "ضحايا الحب" (1963م) لمحمد بن التّهامي و"إنّها الحياة" (1965م) لإسماعيل البوعناني و"أمطار الرحمة" (1965م) لعبد الرحمن المريني و"بوتقة الحياة" (1966م) لأحمد البكري السباعي و"غدا تتبدل الأرض" (1967م) لفاطمة الراوي مثلا ونصوص "سبعة أبواب" (1965م) و"دفنا الماضي" (1966م) لعبد الكريم غلاب و"جيل الظمأ" (1967م) لمحمد العزيز الحبابي"⁽⁸⁾، لأنّ النّصوص الأولى لا ترقى إلى شروط الفن الرّوائيّ على غرار النّصوص الثّانية التي تتوفر على هذه الشروط.

وهذا الحضور للرّواية في السياق الثقافي المغربيّ، لا يعني بأيّ حال من الأحوال أنّ التغيير حدث دفعة واحدة، وأنّه قد أصبح قويا على جميع المكونات الثقافية، بل إنّ هذا التغيير حدث بشكل بطيء ومتدرج ضمن مراحل غطت كل وحدة منها فترة متميّزة من تاريخ الرّواية المغربيّة وتمثلت هذه المراحل في:

1- المرحلة التأسيسية (مرحلة التقليد)*: تمتد زمنيّتها من أوّل عمل روائي إلى منتصف الستينيات وبالضبط إلى سنة 1967م تاريخ صدور (جيل الظمأ) لمحمد العزيز

الحبابي، وإن كان هناك شبه إجماع حول تاريخ نهاية هذه المرحلة، فإن بدايتها ظلت مع ذلك محط خلاف قوي بين الباحثين إلى اليوم، فمنهم من أرجعها إلى سنة 1924م تاريخ صدور (الرحلة المراكشية) ومنهم من ذهب لما هو أبعد من ذلك وربطها بتاريخ صدور في (الزاوية) 1942م، أو إلى سنة 1957م تاريخ صدور (في الطفولة)، وهذا ما فصلنا فيه آنفا.

وإن كان الكاتب المغربي يطمح إلى الكتابة على منواله، دون الرجوع إلى أدب المشاركة لأتّهم في رأيه "ينسجون بعضهم بعض وأغلبهم يكتب انطلاقاً من أوهام وتقاليد متشابهة"⁽⁹⁾ على حد تعبير محمد زفزاف. ونتيجة لذلك أسقطت أغلب أعمال هذه المرحلة باستثناء خمسة عناوين، باعتبارها أعمالاً لا تمتلك قيمة فنيّة تمثيلية كبيرة تؤهلها لإعطاء صورة عامة وواضحة عن الرواية المغربية؛ وتمثلت الخمسة الباقية في:

1- "الزاوية" للتهامي الوزاني (1942م).

2- "في الطفولة" لعبد المجيد بن جلول (1957م) الجزء الأول.

3- "سبعة أبواب" لعبد الكريم غلاب (1965م).

4- "دفنا الماضي" لعبد الكريم غلاب (1966م).

5- "جيل الظمأ" لمحمد العزيز الحبابي (1967م).

أ-رواية السيرة الذاتية (حضور الذات في الرواية): لعلّ أبرز ما يشدّ انتباه الباحث في أعمال هذه المرحلة التأسيسية الهامة من مراجع الكتابة الروائية المغربية، وربما في غيرها أيضاً، طغيان ظاهرة امتزاج الرواية بالسير ذاتية، بحيث لا يكاد يدخلو عمل من الأعمال الخمسة السابقة من آثار هذا المكون الخاص على المستوى الحكائي؛ حيث غالباً ما ينهل الروائي من تجربته الخاصة محاولاً الاستفادة من ماضيه ليشكل نَصه الروائي. "وتعتبر (في الطفولة) أوّل محاولة روائية بالمغرب تتخذ شكل سيرة

ذاتية⁽¹⁰⁾. ولقد ظهر هذا الجنس بعد ظهور الرواية؛ حيث استفادت السيرة الذاتية من الرواية الفنية ممّا أحدث تداخل بين الجنسين بلغ حد الالتباس. وأثارت هذه المسألة جدلا بين المثقفين فمنهم:

1- موقف متشبه بصفاء كلا الجنسين: فمنذ سنة 1970م أعلن Starobinski Jean "أنّه ينبغي تجنّب الحديث عن أسلوب أو حتى عن شكل مرتبطين بالسيرة الذاتية؛ إذ لا وجود في هذه الحالة لأسلوب أو لشكل ينبغي الالتزام بهما"⁽¹¹⁾، إذ يشكك -أنصار هذا الفريق- في الحدود الفاصلة بينها معتبرا أنّ "الميثاق الأوطوبيوغرافي يختلف عن ميثاق الروائي في عدّة جوانب منها: عدم تطابق بين المؤلف والبطل بشكل معلن، واعتراف الكاتب بأنّ عمله عمل متخيّل وبالتالي -روائي- وتحديد ذلك على غلاف روايته"⁽¹²⁾؛ وعليه فالميثاق الروائي يظهر في لباس الخيال عكس ميثاق السير ذاتي الذي يظهر في لباس الحقيقة.

2- موقف يستعمل مصطلح (السيرة الروائية) أو رواية السيرة الذاتية (Roman Auto Graphie)، أو السيرة الذاتية الروائية (Roman Auto Gee Graphie): حيث يعترف أنصار هذا الموقف بامتزاج كلا الجنسين، يقول مصطفى المنساوي^(*): "أنّ الأدب يبدأ من المكان الذي تنتهي فيه السيرة الذاتية، فكل أدب هو خاص بمعنى أن يعبر عن تجربة أو تجارب مفردة ولكن في الوقت نفسه يكون عاما بقدر ما تكون هذه التجربة نموذجية ومعقدة بحيث تشمل عددا كبيرا من الناس"⁽¹³⁾، وعليه يرى البّاردي أنّه "عندما نتأمل خانة الأشكال ذات العائلة الأجناسية الواحدة فيصعب التمييز العلمي المقنع والنهائي بين السيرة الذاتية والمذكرة، والسيرة، والرواية الشخصية، وقصيدة السيرة الشخصية، واليوميات الخاصة، والرسم الذاتي، أو المقالة فعلا عن علاقة السيرة الذاتية بالرواية فقد نجد عنصرا مفارقا في علاقة هذا الشكل بالشكل الآخر لكن الحدود

الفاصلة بينها قد لا تبدو مطلقة ونهائية بقطع النظر عن النظرية التي تبجح التداخل بين الأجناس الأدبية وتشكك في الحدود الفاصلة بينها⁽¹⁴⁾، وهذا التزاوج يعطي للسيرة الذاتية على مستوى النّص الرّوائي توّصلا بين المتناقضات المتمثلة في (الواقع/ الخيال، الذاتي/ الموضوعي، الفردي/ الجماعي)

فرواية السيرة الذاتية إذن ظاهرة تستدعي البحث عن الأسباب الثانوية خلفها لمعرفة ما إذا كانت مؤشرا يطبع البدايات عادة من خلط أجناسي ينم عن سوء فهم لخصوصية الكتابة الرّوائية، أم إفرازا موضوعيا اقتضته المرحلة التاريخية المذكورة، علما أنها ظاهرة عامة تتجاوز نطاق ما هو محلي ووطني، لتطال البدايات الرّوائية الشرقية والغربية على حد سواء بدليل (زينب) سنة 1914م لمحمد حسين هيكل، و(الأيام) سنة 1929م لطفه حسين، و(حياتي) سنة 1950م لأحمد أمين وغيرها.

ولقد عرّف المغرب صنفين من الرّواية سير ذاتية:

- السيرة الذاتية الصافية: والتي يختص بها المغرب الأقصى على غرار الأقطار الأخرى متمثلا ذلك في كل من (الرّواية) و(في الطفولة).
- روايات معتمدة على مكونات سير ذاتية: وهي كثيرة⁽¹⁵⁾.

يحدّد عبد المحسن طه بدر في كتابه (تطور الرّواية العربية في مصر)

الظروف التي أحاطت بمثلها وأثرها على نفسياتهم وتفكيرهم وأدبهم وجملها في:

- 1- أغلبهم عاشوا فترة صباهم في قلب الريف.
- 2- لم يتخصصوا في الرّواية والقصة القصيرة لأنهم حين بدأت موهبتهم في التفتح لم تكن الرّواية أو القصة القصيرة.
- 3- أغلبهم عاشوا الاستعمار وكانوا لا يأملون في الثورات خيرا، لهذا لم يصابوا بخيبة أمل أثناء الهزيمة.

4- عاشوا في أحضان التخلف الاجتماعي والبؤس والفقر⁽¹⁶⁾.

وهناك بعض النماذج التي ميّزت هذه المرحلة نذكر على سبيل المثال لا

الحصر:

- الزاوية: تعد البداية الأولى في الكتابة السير ذاتية المغاربية ما لم تظهر البحوث متونا غيره فتوظيف المؤلف لضمير المتكلم، وبعض العلامات الدالة تدرج نص (الزاوية) في إطار السير ذاتي يقول في مستهل الرواية: "وإذا كنت في هذه الورقيات أريد أن أتحدث عن صفحة من أجمل صفحات حياتي، تلك هي حياة الرهبانية والانقطاع للعبادة والتفرغ لما يطهر النفس وتهذيبها"⁽¹⁷⁾، ويبدئي نصّه هذا على ضمير المتكلم مع الفعل الماضي في نقله للأحداث لتبين المرحلة التي كابدها بين الشك والتردد بين هذا الموقف أو ذاك وخصوصا في الحقل العقائدي، ثم مرحلة الثبات واليقين التي بيّنت له مبادئ النهج الصوفي.

- في الطفولة: لقد عدّ هذا النصّ كما رأينا أنفا منطلق المسيرة الروائية المغربية دون إبداء أي تحفظ أو احتراز في إعلان هذا الموقف النقدي، كما عدّه صاحبه قصة طويلة أطرتها ثلاث حلقات شكلت المبنى العام الذي يصهر النصّ السير الذاتي في قالب سردي وتمثلت هذه الحلقات في:

- الحلقة 1: فترة الطفولة في إنجلترا إلى ثمان سنوات.

- الحلقة 2: السفر الأول إلى مراكش (المغرب).

- الحلقة 3: الرجوع إلى المغرب نهائيا.

- سبعة أبواب: فهي الأخرى سيرة ذاتية لكتابها عبد الكريم غلاب ويتجلى ذلك من خلال مطلعها؛ إذ يقول: "لم تكن المرة الأولى التي عرفت فيها السجن، ولذلك لم أكن لأتهيب السجن كما أتهيب باب المدرسة لأول مرة، ولم أباغث بالسجن يصدر حكما من فم القاضي أو رئيس الشرطة كما يباغت الخارجون عن القانون حينما لا يتوقعون نتيجة

ما يرتكبون بل إنّي كنت أسعى إليه عن عمد وسبق إسراركما يقول رجال القانون" (18)، فمن خلال هذا المقطع يتحدث عن نفسه، وكيف دخل السجن؛ إذ لم تكن هذه مرتته الأولى، بل دخل السجن قبل هذه المرة في سرد لما حدث له إثر ثورة الملك والشعب سنة 1953 ومساهمته في إشعال فتيل تلك الثورة وهو ما قاده إلى السجن؛ إذن سبعة أبواب هي الأخرى "ذكريات تصوّر تجربة حيّة عاشها الكاتب فعلا، وهي تجربة السجن لسته أشهر رهن التحقيق أيام الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي لتحرير الوطن المغربي من سيطرته" (19)، كما ورد في غلاف الكتاب.

وعليه تعدّ رواية السيرة الذاتية السمة البارزة التي ميّزت مرحلة التأسيس، في وقت أحسّ فيه المثقف المغربي بأهميته فراح يكتشف ذاته الضائعة، التي ضيعها أيام الاستعمار. ولم تتوقف رواية السيرة الذاتية عند هذه المرحلة فحسب بل شهد هذا النمط تطورا على مدى السبعينيات والثمانينيات حيث ظهرت رواية (الخبر الحافي) 1982، (الشاطر) 1982 لمحمد شكري، و(لعبة النسيان) لمحمد برادة، وتواصلت الكتابة في هذا المجال مع التسعينيات مع كتابان عبد الله العروي ونصه (أوراق) 1990.

ب- الرواية التاريخية: وهي السمة الثانية التي ميّزت مرحلة التأسيس، ولقد تحدثنا عن العلاقة الوطيدة التي ربطت الرواية والتاريخ، بعد ما كان هذا الأخير مقتصرًا على كتب التاريخ.

ولما تزامن ظهور الرواية المغربية مع حدث تاريخي مهم، وهو حصول المغرب على الاستقلال راحت الرواية تواكب هذا التطور الحاصل في المجتمع المغربي، فركزت معظم الروايات التي اهتمت بالثورة المغربية على "اللحظة التاريخية المشرقة من مسيرة المغرب، ووقفت عند النهاية السعيدة التي يجسدها الاستقلال" (20)، وكان معظم الذين كتبوا الرواية التاريخية قد عايشوا الاستعمار وويلات السجن كعبد

الكريم غلاب، حيث كتب (سبعة أبواب) ليصوّر معاناته كمواطن مغربي عانى من السجن في ظل الاستعمار. فركز كتاب الرواية التاريخية على الماضي، وابتعدوا عن الحاضر، والمستقبل.

ورغم الهم الذي كان على عاتق الشعب المغربي ألا وهو الاستعمار، لكن هذا لم يمنعه من أن يشارك في هم أخيه العربي وحماية الهوية والذات العربيتين. فأثناء معركة 1973م أرسل المغرب قوة عسكرية إلى سوريا ليشد بها أزر العرب، ويشارك في المعركة. فعبر مبارك ربيع في روايته (رفقة السلاح والقمر) عن هذا التلاحم العربي من خلال وصف هذه الحملة العسكرية التي قادها كل من: المقدم عبد السلام والرفيق أويها؛ حيث تطوع الأول برضاه، والثاني كان ممن شاركوا في التجنيد العسكري⁽²¹⁾.

فامتزجت الثورة لاستقلال الوطن الواحد مع الثورة ضد استقلال الوطن الأم (الوطن العربي)، ضمن ملحمة روائية قادها الأبطال، وما كتبته خناثة بنوتة في (النار والاختيار)؛ إذ "راحت تصيح من المغرب العربي عقب هزيمة 1967، أنه لا بد من الخلاص من الصمت والتمرد على الواقع الذي يراد لنا فيه أن تظل تحت سطوته"⁽²²⁾،

2- المرحلة الواقعية: تمتد زمنيا من نهاية المرحلة السابقة (التأسيسية) إلى منتصف السبعينيات حيث اتخذت المرحلة السابقة (الماضي) منطلقا لها، ومدار إشكالاتها، أما هذه المرحلة فتحوّلت إلى (الحاضر) بكل تناقضاته، ومشكلاته على جميع الأصعدة. وتميّزت هذه المرحلة بحصول المغرب على الاستقلال عام (1956م)، ودخوله مرحلة الجهاد الأكبر لمحو آثار التخلف والاستعمار.

فطغت مفاهيم نقدية طبعت هذه المرحلة؛ (كالصراع الطبقي، الالتزام، المثقف، اليمين/ اليسار، التقدمي/ الرجعي، الثقافة التقليدية/ الثقافة الثورية). فوجدت الرواية المغربية ضالتها المنشودة في (الواقعية) باعتبارها الاتجاه الإبداعي الملائم الكفيل

بتحقيق الرهانات التاريخية المطروحة، كما انعكس ذلك بجلاء في أعمال كل من: محمد زفزاف، عبد الكريم غلاب، مبارك ربيع، محمد شكري، حيث عالجوا مشكلات مجتمعهم الجديد، واستأثرت قضايا مرحلتهم التاريخية باهتمامهم، فعبروا عن الجهل والفقر والفساد، كما رصدوا مظاهر التجديد في الحياة الاجتماعية وآزروها.

ولهذا كان أفضل جو مناسب للرواية الجديدة هو بالتأكيد "الوسط البرجوازي على توالي أطواره التاريخية... أما في الوسط غير البرجوازي فهو بالتعريف آفاقي مطرف عن قلب وقطب المجتمع، يطل عليه الروائي من حين لآخر لكنه يسارع إلى مغادرته والعودة إلى محيطه الطبيعي..."⁽²³⁾، فالبرجوازية المغربية التي قادت معركة الاستقلال تمكّدت من بسط نفوذها وهيمنتها على جميع الأصعدة منها والأدبية، كما لا ننسى البرجوازية الصغيرة التي راحت هي الأخرى "تعبّر عن وجودها رسمياً وعلناً في سنة 1959م برصد الهزائم التي ألحقت بهذه الطبقة إلى جانب الكشف عن طبيعة هذه القوى الاجتماعية الصاعدة، وعجزها عن مواصلة مهام تاريخية"⁽²⁴⁾.

فراح الصراع يحتدم بين هاتين الطبقتين، واستقطبت كل منهما أهل الفكر والقلم، فظهرت روايات تنتمي إلى هذه الطبقة أو أخرى؛ إذ ركزت البرجوازية الكبيرة على الماضي باعتباره نبعاً ثرياً وتاريخياً حافلاً بالتضحيات والمكاسب، فحين انصب اهتمام مثقفي البرجوازية الصغيرة على الواقع المعاش الذي أخذوا ينقدونه ويعرون مظاهره الشائنة لاستغلاله جمالياً وفنياً في أعمال روائية"⁽²⁵⁾ مع استمرار حضور موضوع السيرة الذاتية والغرب، لأن مجموعة من الكتاب راحوا يتفوقون داخل ذواتهم.

فالرواية مع كل هذا ليست تجسيدا للواقع فحسب ولكنها فوق ذلك موقف من هذا الواقع الذي تصارعت الطبقات كل طبقة تمثل إيديولوجية واضحة الأهداف والمساعي، جسدها عبد الله العروفي في رواياته ليضع يده على منافذ العلة وأسباب

الخبية. و"هو في الواقع لا يقَدّم جديدا يخص بلده المغرب بل هي حقيقة كل الشعوب التي ظلت فترة طويلة تئن تحت نير الاستعمار"(26).

كما جسّدت روايات جيل الاستقلال التحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي مرّ بها المجتمع المغربي، ومجد زفزاف واحد من هذا الجيل الذي رصدت رواياته (المرأة والوردة) 1972، (أرصفة وجدران) 1974، (قبور في الماء) 1978، (الأفعى والبحر) 1979 (محاولة عيش) 1985، (الثعلب الذي يظهر ويختفي) 1985، مظاهر الفساد والصراع الطبقي والاختلافات السلطوية التي ميّزت مرحلة الاستقلال؛ إذ تمثل صورة حيّة لما عاشه الشعب المغربي عقب نيّله حريته، ليدخل في صراع آخر لنيل حرية أخرى، وهي التحرّر من نفسه.

فنزعت نصوصه الأولى إلى "التعبير عن أزمة المثقف البرجوازي في المغرب العربي، ومنظوره الانتقادي للواقع... في رواية (أرصفة وجدران)... وتكريسه شخصية البطل في رواية (المرأة والوردة) الذي سعى إلى تجاوز أزمته مثقفا بالدخول إلى عالم الانحراف وممارسة الجنس والحشيش واختراق محرمات المجتمع المغربي. ثم تحول الكاتب في نصوصه الروائية اللاحقة كـ. (الأفعى والبحر) و(قبور في الماء) و(محاولة عيش) إلى رصد واقع الفئات الشعبية في المجتمع المغربي".(27)

ولقد ظل مجد زفزاف مخلصا لمواضيعه الروائية، فمعظمها لا تكاد تحيد عن الجنس السلطوية، والبرجوازية، كلّها قضايا تتسم بها روايته الموسومة بـ (بيضة الديك) التي اشتملت على مظاهر الفساد، والصراع الطبقي، والاختلافات السلطوية التي ميّزت مرحلة الاستقلال؛ إذ هي صورة حية لما عاشه المغربي عقب نيّله حريته ليدخل في صراع آخر لنيل حرية أخرى، وهي التحرر من نفسه.

3- مرحلة التجديد: رأينا سابقا كيف أنّ أنصار التقليد قد عمدوا إلى الماضي وتمثلوه في الحاضر سواء؛ أكان جماعيا متصلا بالتاريخ النضالي للشعوب، والمتمثل في الرّواية التاريخية، أو فرديا متصلا بذات الكاتب والمتمثل في السيرة الذاتيّة.

وكيف أنّ الأدّين تحولوا عن هذا الاتجاه إلى الاهتمام بالواقع الاجتماعي والسياسي ونقده وطرح البديل الاشتراكي كمعادل موضوعي؛ فإنّ مجموعة أخرى راحت تتطلع إلى المستقبل بعيدا عن الماضي بتاريخه، والحاضر بمشاكله، متجاوزة السائد من أسئلة المتن الرّوائيّ جاعلين البحث سبيلهم إلى المغامرة وطرح الجديد في "أسئلة متن، وبنية شكل، وانساق لغة خطاب"⁽²⁸⁾، وإن كانوا لا يتجاوزون النّص السابق تجاوزا تاما، بل يحاورونه، ثم ينتهون إلى تدميره ليقوم النّص الجديد. ولقد ميّز هذه المرحلة:

أ- رواية التجريب:

لقد تميّزت هذه المرحلة على الصعيد السياسي بالعديد من الأحداث الهامة الداخليّة منها والخارجيّة كان لها تأثير كبير في تغيير مسار الأدب والفكر العربيين. كما تزامنت مع تطورات معرفيّة كبيرة همت مختلف حقول الدّراسة الأدبيّة وفي خضم هذه التطورات ظهرت في منتصف السبعينيات من القرن العشرين على السطح تصورات أدبيّة جديدة، تدعو من بين ما تدعو إليه تحديث الكتابة الرّوائيّة العربيّة، وذلك بتجاوز قوالب التقليد والغوص في الماضي واستبدالها بمقولات جديدة أكثر ملائمة للوضع الثقافي الراهن. "لأن استمرار هذه الرّؤية في ظل ظروف مستجدة أمر يسقط الأدب في متاهة الاجترار والتكرار، إذ لكل مرحلة حضارية قضاياها ومشكلاتها الخاصة بها التي تتطلب رؤى فكريّة وفنيّة مستجدة ممّا يجعل التقليديّة تبدو شائخة وغير معبرة عن أوجّ الجيل الجديد وآماله، وهذا لا يعني بالطبع نكران انجازاتها ولكنه

يعني أنّ هذه الإنجازات والتقاليد أصبحت تراثا ينبغي تجاوزه لهدير الحياة الجديدة".⁽²⁹⁾ وهو ما أدى لقيام أصبح يعرف بالتجريب.

مجد برادة واحد من الذين ركبوا غمار التجريب حيث صدرت له أول رواية سنة 1987 وسمّيت بـ (لعبة النسيان) التي "استمدت عناصرها وفضاءاتها وشخصياتها من مرحلتين تاريخيتين مختلفتين، فاس والرباط في الأربعينيات والخمسينيات بعد الاستقلال إلى حدود التسعينيات ومعنى ذلك تشخيص التعارض مع مجتمع تقليدي منسجم مع قيمه، ومجتمع يعيش بلبله التحوّل عبر التحديث والصراعات السياسية والاجتماعية" كما جاء على غلاف الرواية، وقد جنّسها الكاتب بعنوان فرعي تعيني "نص روائي" وتتشابك في النصّ أحداث تخيلية وواقعية متنوعة تسرد سيرة ذاتية لكاتبها، منذ الطفولة حتى الشباب يقول: "لم يكن يهمني حين كتبت (لعبة النسيان) أن أؤرخ، أو أن أتذكر، وإنما كنت أوهم النفس أنّ الكتابة تتيح الاقتراب من أعماق الزمن... ومن ثم اللجوء إلى فضاءات الطفولة والمراهقة والشباب بحثا عن زمن لم يعد موجودا إلا في الذاكرة والحلم..."⁽³⁰⁾. وبهذا تكون (لعبة النسيان) "أول نص سردي نثري يبنني على استرجاع ماضي الشخصية أو الذات الفردية (الهادي)، في امتدادها الزمني وتعايشها مع الذات الأخرى سلبا أو إيجابيا في مواجهة الموضوع من أجل فهم الحياة الفردية وتاريخها وتفسيرها بما هو خارجي شعوري أو لا شعوري، مع حضور المؤلف مقنع بقناع السارد أو الشخصية..."⁽³¹⁾.

ومثل هذا التوظيف جعل الرواية حقلا لممارسة أنواع مختلفة من التجريب، مارسه عدد من الروائيين العرب كصنع الله إبراهيم، جمال الغيطاني، رجاء عالم، الطاهر وطار، مجد برادة، أحمد المدني، عز الدين التازي، سالم بن حميش، الميلودي شغموم وآخرون من الذين ارتادوا التجريب حقلا للإبداع.

ب- رواية التراث: لقد وظف الروائيون المغاربة التراث بوصفه صوت الهوية، بحثاً عنها في خضم هذه التحولات التي شاهدها السّاحة الأدبيّة المغربيّة، ولم يكن ذلك بدعا عليه وإنّما تمثّلوا السيرة التي دأب عليها المشاركة في أعمالهم الرّوائية من نحو (زيني بركات) لجمال الغيطاني، ورضوى عاشور في (ثلاثية غرناطة) وإميل حبيبي في (الوقائع الغريبة في اختفاء أبي النحس المتشائل). وتعد رواية محمود المسعدي (حدث أبو هريرة قال...) "أول رواية عربية توظّف التراث السّردي، إذ بدأ مؤلفها بكتابتها في عام 1944 ولم ينشرها إلّا في عام 1973. وهي بذلك تعد رائدة على مستوى توظيف الرّواية العربيّة المعاصرة للتراث"⁽³²⁾. فالتراث كما يعرفه الجابري هو "الجانب الفكري في الحضارة العربيّة الإسلاميّة: العقيدة والشريعة واللّغة والأدب والفن والكلام والفلسفة والتصوف..."⁽³³⁾ ولقد ظلّ هذا التراث لفترة طويلة يتحدد فترة زمنيّة تنتمي إلى الماضي، ولكن هذه النظرة بدأت تتغيّر، وأصبح التراث لا يدل على فترة زمنية محددة بل يمتد حتى يصل إلى الحاضر، ويشكل أحد مكونات هذا الواقع (الحاضر) كالعادات والتقاليد والأمثال الشعبيّة.

وهذه العودة إلى التراث "تنخرط ضمن مذهب تحديثي في الكتابة الرّواية يتوقف إلى تحقيق حدّثة مننة الحكائي وأنساق خطابه عبر الارتداد إلى التراث والبحث عمّا يمكن أن يستوعب إشكالات الراهن، ويعبر عنها بأشكال جديدة"⁽³⁴⁾، فكتب الميلودي شغوموم (الأبله والمنسية وياسمين)، ومبارك ربيع (بدر زمانه) الذي استلهم فيها عوالم ألف ليلة وليلة، وكتب أحمد التوفيق (جارات أبي موسى)، أما سالم بن حميش فكتب (مجنون الحكم) ليدخل بذلك الرّواية التراثيّة من باب التخيل التاريخي .

كما تعد (جارات أبي موسى) لأحمد التوفيق رواية تراثيّة تمزج بين التخيل التاريخي والتخيل الصوفي فهي "تستعرض تناصيا تاريخ بني مرين ولا سيما فترتي أبي الحسن

المريني وابنه أبي عنان وتنفّتح بصفة عامة على تاريخ المغرب في العصر الوسيط الّذي يشكّل سياقها التناسي".⁽³⁵⁾ ولقد اتّسم هذا العصر بالمدن والحروب والهزائم والصراعات الداخلية، والخارجية. ولقد اشتدّ الصراع بين الموحدين والمرينين. وقعت معركة العقاب الّتي انهزم فيها المغاربة أمام الأسباب في الأندلس ينذر بالسقوط المبكر في تحالف الجيوش المسيحية فيما بينها في استرجاع الأندلس وقد فشل أبو الحسن في توسيع إمبراطوريته المغاربية بعد هزيمة في الانتصار على الأعراب في تونس. وضاع أسطوله غرقا في البحر، وتفشى الفساد في بلده المغرب وعاصمته الإستراتيجية شاملة (سلا)، هذه الأخيرة الّتي تجري فيها أحداث الرواية.

تجدد الإشارة هنا أدبه على الرّغم من الحماس الكبير الّذي واكب هذه الدعوة من البداية إلى اليوم، إلا أنّها مازالت تواجه بعض الانتقادات الّتي تحول دون تحقيق الإجماع المنتظر حولها؛ فجميل حمداوي يرى أنّ التجريب في المغرب "لم يكن سوى موضحة سردية مفتعلة لعدم تفاعلها جدليا مع الواقع المغربي المتخلف والقارئ الّذي لم يشبع بعد من معين الروايات الكلاسيكية القليلة جدا"⁽³⁶⁾

وقد تميّزت هذه المرحلة بـ:

- ✓ تشاكل الذات مع الواقع.
- ✓ تداخل اليومي مع الحلّمي والأسطوري.
- ✓ تنويع مستويات لغة الكتابة من توصيلية طبيعية وشعرية مشحونة بالموروث إلى يومية وسوقية تروم نوعا من الأسلية.
- ✓ ترميز العوالم والشخصيات.
- ✓ المزج بين الواقع وتفصيله وبين التخيلي وانزياحاته.

✓ محاولة تملك فضاءات المدن والجهات قصد تشكل محكي خاص مغرق في المحلية⁽³⁵⁾

وفي الختام يمكن القول أنّ الرّواية المغربية قد قطعت شوطا لا بأس به في ميدان الرّواية المغربية خاصة والرّواية العربيّة عامة من خلال أولئك الذين حملوا لواءها وعبروا عنها من خلال الكثير من الأعمال الرّوائيّة التي أثرت المكتبة العربيّة.

- ¹ مجموعة من المؤلفين: النّص الأدبي بين الواقعي والمتخيّل، منشورات وحدة النقد الأدبي الحديث والمعاصر، منشورات باريس (Paris)، النقد الأدبي المعاصر، زمن الورقاء، الإصدار الثاني، ص: 44.
- ² بن جمعة بوشوشة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي، المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، ط/1، سنة: 1999م، ص: 31.
- ³ ينظر النساج سيد حامد: بانوراما الرواية العربية، دار المعارف، ط/1، ص: (203، 204).
- ⁴ أزرويل فاطمة: مفاهيم نقد الرواية بالمغرب (مصادرها العربية والأجنبية)، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص: (99، 100). ولمزيد من التوضيح ينظر: النساج سيد حامد: بانوراما الرواية العربية، ص: 206 وما بعدها.
- ⁵ فرحات أحمد: أصوات ثقافية من المغرب، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط (؟)، ص: (130، 131).
- ⁶ بن جمعة بوشوشة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي، ص: 32.
- ⁷ أزرويل فاطمة: مفاهيم نقد الرواية بالمغرب، ص: (103، 104).
- ⁸ بن جمعة بوشوشة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي، المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، ط/1، سنة: 1999م، ص: (32، 33).
- ^{*} كما يسميها بن جمعة بوشوشة في كتابه (اتجاهات الرواية في المغرب العربي).
- ⁹ فرحات أحمد: أصوات ثقافية من المغرب العربي (المغرب)، ص: 162.
- ¹⁰ أزرويل فاطمة: مفاهيم نقد الرواية بالمغرب، ص: 100.
- ¹¹ الباردى محمد: إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، ص: 125.
- ¹² أزرويل فاطمة: مفاهيم نقد الرواية بالمغرب، ص: 102.
- ^{*} كاتب مغربي، بدأ الكتابة وهو لم يتجاوز سن 18.
- ¹³ فرحات أحمد: أصوات ثقافية من المغرب، ص: 166.
- ¹⁴ الباردى محمد: إنشائية الخطاب في الرواية العربية الحديثة، ص: 103.
- ¹⁵ ينظر بن جمعة بوشوشة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي، ص: 138.
- ¹⁶ ينظر: طه بدر عبد المحسن: تطور الرواية العربية في مصر (1879-1938)، دار المعارف، مكتبة الدراسات الأدبية، كورنيش النيل - القاهرة، ط/4، ص: (284....286).
- ¹⁷ بن جمعة بوشوشة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي، ص: 139.

¹⁸ موقع من الانترنت: بنحدو رشيد: الاستهلال في روايات عبد الكريم غلاب

<http://arapeagreg.on.ma>

¹⁹ موقع من الانترنت: بنحدو رشيد: الاستهلال في روايات عبد الكريم غلاب.

(20) بن جمعة بوشوشة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي، ص: 127

²¹ ينظر: عبد الغني مصطفى: الاتجاه القومي في الرواية، سلسلة عالم المعرفة، ص: 79

²² المرجع السابق، ص: 78.

(23) العروي عبد الله: الإيديولوجية العربية المعاصرة (صياغة جديدة)، المركز الثقافي العربي، الدار

البيضاء، ط/1، سنة: 1995، ص: 240.

²⁴ النساج سيد حامد: بانوراما الرواية العربية، ص: 205، بتصرف.

(25) المرجع السابق، ص: 205.

(26) عباس إبراهيم: الرواية المغاربية (جدلية التاريخية والواقع المعيش)، دراسة في بنية

المضمون، ط؟، ص: 81.

²⁷ الخواجة دريد يحي: إشكالية الواقع والتحويلات الجديدة في الرواية العربية (دراسة ووعي مجادلة

الواقع ومتغيراته وتقنيات البنية) -دراسة- من منشورات اتحاد كتاب العرب، سنة: 1999 ص:

201.

(28) بن جمعة بوشوشة: اتجاهات الرواية في المغرب العربي، ص: 145

(29) موقع من الإنترنت: العدوانى معجب: الرواية ومقاومة التجريب، مجلة الموقف الأدبي،

ع/367، تشرين الثاني، سنة: 200 adm.org www.awu

³⁰ محمد برادة: لعبة النسيان، دار النشر (?)، سنة: 2003. من موقع

www.lilias.com/vb3mllovli

³¹ حمداوي جميل: لعبة النسيان لمجد برادة بين الزمن الضائع والتجريب البوليفوني، الحوار

المتمدن، ع/ 1670، سنة: 2006 /09 / 11، المحور: قراءات في عالم الكتب والمطبوعات.

(32) عابد الجابري مجد: التراث والحداثة (دراسات ... ومناقشات)، مركز لدراسات الوحدة المربية،

ط/3، سنة: 2006 ص: 30

(33) بن جمعة بوشوشة: التجريب وارتحالات السرد الروائي المغاربي، 2003، المغاربية

للطباعة والنشر والإشهار -تونس- ط/1، ص: 85

(34) موقع من الانترنت: حمداوي جميل: السرد الروائي المغربي بين التجنيس والتأصيل التراثي.

<http://www.arabicnadwah.com/articles/sard-hamadaoui.htm>

³⁵ موقع من الانترنت: حمداوي جميل: جارات أبي موسى، مقاربة تناصية، ع/263، سنة: شباط

1999

36) موقع من الانترنت: الورداعي خاليد: مسارات تكون النص الزوائي المغربي، مجلة الحوار، ع/11.